(٣)

دراسة التاريخ فريضة شرعية وضرورة استراتيجية

obeikan.com

obeikan.com

(١)

دراسة التاريخ فريضة إسلامية، فرضها الله سبحانه على عباده المسلمين بنصوص قرآنية قاطعة. ودراسة التاريخ هي الأساس الصلب لفهم المستقبل. والحركة التاريخية تشغل جانبا كبيرا من التوجيه القرآني سواء ما كان منها خاصا بشرح القوانين التي تهيمن على حركة الكون، أو التي تحكم نهضة الأمم واندحارها، أو سردا تاريخيا للرسالات التي أرسلها الله لهداية البشرية من الظلمات إلى النور ومن الضلال ومن العذاب إلى الرحمة، أو كان بيانا لخلق الإنسان والأمانة التي كلف بها وما يلزمه من سياسة في مواجهة الأعداء والانحرافات.

والحركة التاريخية تشغل مساحة واسعة في القرآن الكريم، بل إن القرآن الكريم ينص صراحة في عشرات الآيات على الدعوة الصريحة لدراسة التاريخ.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ (٢)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ (٣).

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (٤)

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ (٥).

(١) الأنعام آية (١١) مكية.
(٢) يوسف آية (١٠٩) مكية.
(٣) الحج آية (٤٦) مدنية.
(٤) آل عمران آية (١٣٧) مدنية.
(٥) العنكبوت آية (٢٠) مكية.

والآيات السابقة ـ دعوة مباشرة لدراسة التاريخ ـ بمعناه الشامل، وهذا معنى دراسة كل العلوم التي تخدم التاريخ. وهذه الآيات ليست إلا نموذجا لعشرات الآيات التي تتضمن الدعوة نفسها [1].

والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا أن تلك الآيات التي تقرر وجوب دراسة التاريخ فيها المكي والمدني إن كان معظمها مكيا.

وهذا يعني أن دراسة التاريخ مسألة هامة في المجتمع المسلم سواء كان في حالة دولة أو في حالة ما قبل بناء الدولة ـ وإن كان أكثر أهمية في حالة ما قبل بناء الدولة؛ لأن استيعاب حركة التاريخ عملية لازمة لبناء الطليعة المؤمنة التي تضطلع بالإعداد لإقامة المجتمع المسلم [2].

***

(٢)

معرفة السنن ودراسة العبر هي إذن فريضة إسلامية، والعلم بكل فروعه فريضة إسلامية. وعلى رأس العلوم يأتي علم (التاريخ) كفريضة أهم، وعلم التاريخ في القرآن هو علم مرتبط بحركة الأمم والشعوب وليس مقصورا على دراسة سير

(١) على سبيل المثال لا الحصر:
الآية ٩ من سورة الروم مكية
الآية ٤٤ من سورة فاطر مكية
الآية ٢١ من سورة غافر مكية
الآية ٨٢ من سورة غافر مكية
الآية ١٠ من سورة محمد مدنية
الآية ٣٦ من سورة النحل مكية
الآية ٦٩ من سورة النمل مكية
الآية ٤٢ من سورة الروم مكية

(٢) يلاحظ أن الآيات السابقة كان منها ١٠ آيات مكية، وثلاث آيات مدنية.

الزعماء مثلا. كما أنه من الشمول والاتساق بحيث يغطي الدلالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية لحركة الشعوب: ارتفاعها وسقوطها. ومثل على هذا أن الأنبياء والرسل ـ الذين حملوا رسالة الله سبحانه ـ كان كل منهم يركز على أسباب الفساد الشائع في مجتمعه مع عدم إغفال الجوانب الأخرى؛ فمن الأنبياء من ركز على ضرب الجمود والتقليد واتباع آثار الآباء والأجداد بلا تفكير. ومن الأنبياء من ركز على ضرب الفساد الاقتصادي والظلم الاجتماعي مثل شعيب. ومن الأنبياء من جاء ليقود المستضعفين ليخرجوا من تحت نير الظلم والعبودية. وبديهي أن الرسالة اكتملت بالرسول الخاتم عليه صلوات ربي وسلامه. واكتمل الدين برسالة محمد ﷺ واشتمل الإسلام على كل النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية التي تكفل تحقيق مجتمع بشري نظيف وعادل وبناء.

وانطلاقا من كل هذا فإن دراسة التاريخ المعاصر هي فريضة بالتالي على المسلمين عمومًا، وعلى طليعتهم خصوصا.

وإذا قلنا أن العالم الآن بانتظار فجر العالمية الإسلامية الثانية، لإقامة عالم بلا ظلم ولا أحزان، فإن المهمة الضخمة التي تحملها طليعة الأمة الإسلامية في هذا الإطار تستدعي أكبر الاهتمام وأشده بالتاريخ المعاصر خصوصا، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لإنجاز انتصارها المنتظر وعالميتها الموعودة بإذن الله تعالى [1].

(١) في الحقيقة، فإن الحركة الإسلامية في مصر حتى الآن ـ من وجهة نظرنا ـ لم تقدم دراسة علمية متكاملة في التاريخ عمومًا والتاريخ المعاصر خصوصا، وكان اهتمامها بالتاريخ متواضعًا بالقياس باهتمامها بالقضايا الأخرى، ولعل هذا هو السبب في تأخر انتصارها حتى الآن بالإضافة إلى أسباب أخرى.

وفي الوقت نفسه فإن هذا البحث لا ندعي أنه سيكون متكاملا، أو شاملا ولكنه مجرد محاولة بسيطة ومتواضعة تحتاج إلى إضافات ودراسات أخرى من ذوي التخصص، ويكفي هذا البحث أن يكون مجرد محاولة صغيرة على الطريق بل هو في حقيقته ليس إلا مجرد دعوة للمتخصصين والأكاديميين القادرين إلى التصدي لكتابة تاريخ مصر المعاصر الذي شوهه العلمانيون.

(٣)

يظلل وجه التاريخ منذ لحظاته الأولى ذلك الصراع المستمر، والذي لم يتوقف لحظة بين القوى الربانية من جانب والقوى الشيطانية من جانب آخر، مما تمتلكه كل قوة منهما من خصائص خاصة وأدوات وأساليب في الصراع خاصة بها أيضا، ولكن ضمن سنن الله سبحانه وتعالى التي لا تستطيع أي قوة منها أن تتجاوزها، فالقوى الربانية هي قوة الجماهير المسلمة بقيادة طليعتها وهي قوة تعمل على:

١) ربط مصير الإنسانية بأيدي كل الجماهير ـ أي إنها جماهيرية تعمل على الجماهير.

٢) تحرير البشر كافة من الخوف والجهل والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والتخلف القبلي.

٣) قوة غير سلطوية، بمعنى أنه لا إكراه لديها في أي شيء، بل هي تعتمد في التفاف الجماهير حولها على تحرير تلك الجماهير من الاستبداد السياسي والتخلف القبلي والاجتماعي والظلم الاقتصادي، ثم تترك للجماهير حقها في اختيار اقتناعاتها الاجتماعية والسياسية والعقائدية، وبديهي أن الجماهير تختار الإسلام، لأن هذا يوافق فطرتها، ولأن تصميم الكون والحياة والعقل البشري يقود إلى هذا تماما.

٤) قوة تعمل على إزالة كل أشكال التسلط من على وجه الأرض لتحرير كل البشر « مفهوم الجهاد في الإسلام ».

والقوى الشيطانية قوى غير جماهيرية تعزل الجماهير باستمرار عن الوعي والعلم والمشاركة في بناء حياتها، بل تمارس عليها استبدادًا سياسيا، بمعنى أنها تصادر حرياتها وحقها في الاختيار، فهي تفكر لها، ثم هي تربطها بالقيود القبلية والاجتماعية ولا تترك لها فرصة للاختيار الحر، وتقمعها اقتصاديا بمعنى أنها

تحول بوسائلها الشيطانية دون تلبية حاجاتها الأساسية المشروعة.

أي أن تمارس فئة من البشر التسلط والتحكم في الجماهير مستخدمة في ذلك الإعلام والشرطة وأجهزة التضليل والقمع المختلفة.

وبالتالي فإن أي نجاح في انتزاع حق من حقوق الجماهير في الحرية السياسية ورفع المعاناة الاقتصادية وتسليح الجماهير بالوعي هو في النهاية لصالح القوة الربانية ضد القوى الشيطانية، والعكس دائما صحيح.

ولقد حمل لواء القوى الربانية المستضعفون بقيادة الأنبياء، وانتهى هذا اللواء إلى محمد بن عبد الله ﷺ وكان ظرفا تاريخيا فذا حققت القوة الربانية أثناءه انتصارا ساحقا على القوى الشيطانية وبدأت الجماهير تمارس حقها في العلم والوعي والحرية وبناء المجتمع اللا سلطوي واللا طبقي.

ولكن القوى الشيطانية ـ بعد أن هزمت أمام الرسالة المحمدية ـ لم تستسلم تماما. وبدأت تطل برأسها من داخل المجتمع الإسلامي ذاته على مستويين: المستوى الأول: هو إزاحة القيادات الرسالية عن موقع القيادة، والمستوى الثاني: هو ضرب النظرية السياسية الإسلامية وتزييف الإسلام الرباني الصحيح لصالح إسلام أسري وعشائري وطبقي.

وبدأت حركات التمرد عقب وفاة الرسول ﷺ وحركات الردة، ولكنها وئدت بفضل التصدي السريع والقوي لها على يد الصديق أبي بكر رضي الله عنه ومن بعده من الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله.

إلا أن حركات التمرد أخذت شكلا آخر ضد الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ لإزاحته ومن معه من طليعة مؤمنة باتجاه إقامة حكم انتهازي يصادر المفاهيم الإسلامية الصحيحة ويزيفها لصالحه ولصالح أسرته.

واستمر ضرب المفاهيم الإسلامية الصحيحة بلا هوادة، وبدا للحظة أن

الطليعة المؤمنة التي انهزمت وأزيحت عن قيادة الأمة لم تعد قادرة على العمل، وأن هناك خطرًا يوشك أن يجتاح المفاهيم الإسلامية الصحيحة أيضًا عن طريق بث العصبية القبلية وتزييف الإسلام وتفسيره تفسيرا طبقيا وعشاريا لصالح المستكبرين، لولا أن الإمام الحسين ـ رضي الله عنه ـ قد حفر بدمه الذكي رافدا عميقا لاستمرار تدفق المفاهيم الإسلامية الصحيحة وحركة الجماهير بقيادة طليعتها المؤمنة في مواجهة الاستكبار.

ولقد نجح الحسين عليه السلام في أن يفجر في لحظة تاريخية فذة وعي جزء من الأمة، ولولا ذلك لانتهى الإسلام، لا قدر الله.

وبرغم أن الإمام الحسين لم ينجح في إزاحة الاستكبار عن مواقع القيادة فلقد نجح في وقف عملية التزييف ولو على الأقل لدى جزء من الأمة كانت هي الرافد الذي استمر قويا في مواجهة كل محاولات التزييف.

وهكذا تبدأ حقبة ذات طبيعة خاصة في الصراع، تتمثل في جماهير مؤمنة بقيادة طليعة مؤمنة في مواجهة حركة استكبار في موقع القيادة داخل الأمة، وفي مواجهة قوى الكفر الخارجية. ولا يعني هذا أن ليس ثمة تناقض بين قوى الكفر الخارجية والقيادة الانتهازية للأمة الإسلامية على كل حال. فإنه بحسب قدرة الطليعة المؤمنة عن القيادة. فهذه الفتوحات الإسلامية التي استمرت برغم إزاحة الطليعة المؤمنة عن القيادة. فهذه الفتوحات ليست إلا استمرارا للدفعة القوية والمبدعة لحركة المسلمين بقيادة الرسول ﷺ والتي ما كان لها إلا أن تمتد، وهي أيضا أداة لتنفيس الضغط النضالي للقوى الربانية على القيادة الانتهازية.

والحقيقة أن عموم الأمة قد حافظت ـ برغم القيادة الانتهازية ـ على مجموعة من القيم والسلوك كانت من الأهمية بمكان في استمرار حيوية الأمة. كانت الرسالة المحمدية قد زرعت في وجدان الأمة مبادئ:

١) الوحدة.

٢) الحرية

٣) الجهاد.

وتصدى العلماء الشرفاء لإذكاء نيران تلك المبادئ في النفوس وتأصيلها واستخراج أحكامها، برغم مجهود علماء السلاطين، وفي الواقع فإن رايتي الوحدة والجهاد لم تسقطا لا على المستوى النظري ولا على المستوى العملي، بل إن علماء السلاطين لم يحاولوا أصلا إسقاط هذين المبدأين، ولكن تم استخدامهما دائما لخدمة الأمراء بطريقة لم تكن ، في معظم الأحيان ـ تتصادم مع مصلحة الأمة.

أي أن وحدة المسلمين باتت حقيقة واقعة على المستوى الوجداني وعلى المستوى العملي ـ فضلا عن المستوى التشريعي ـ أما قضية الحرية ـ أو تبلور النظرية السياسية الإسلامية ـ فإنها لم تحظ بهذا المصير ذاته، إذ أنها تعرضت لهجمات مستمرة من جانب علماء السلاطين، ومن جانب فقهاء الحكومات المختلفة، كما أن الشرطة وأجهزة القمع مارست دورها في ضرب ومطاردة العلماء الشرفاء، والطلائع الرواد الذين حاولوا دائما أن يحافظوا على نقاء مبدأ الحرية في مواجهة الحكام.

وإذا كان التراث الإسلامي إبان عصور ما قبل الحملة الصليبية واضحا في انحيازه بطريقة الإجماع إلى مبدأي: وحدة المسلمين، وضرورة الجهاد، فإن الكثير من الجدل قد دار حول حقوق الرعية، وحقوق الحكام، وشكل الحكم وغيرها من القضايا.

على أي حال أصبحت النفسية الإسلامية، أو الشخصية الإسلامية مرتبطة أشد الارتباط بمبدأي الوحدة والجهاد، وتشكل الوجدان الحضاري للأمة من هذين المبدأين، وارتبط الإبداع الحضاري الإسلامي بهما، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا: أن المسلم أصبح يبدع في حالة الوحدة والغزو وينحط حضاريا في حالة التفسخ

والقعود عن الجهاد.

وإذا كانت الدفعة الإيمانية الأولى ـ التي نفخها الرسول الكريم في وجدان الأمة ـ قد اتسعت لتحقق نجاح المسلمين حتى تحت ظل القيادة الانتهازية في فتح « العالم القديم »[1]. في معظمه وخضوعه للمسلمين، بل وظهور حضارة فذة على كل المستويات، حضارة استطاعت أن تحقق تقدما علميا واجتماعيا مذهلا لدرجة أن المسلمين على سبيل المثال أسسوا المبادئ العلمية التي قامت عليها كالحضارة العلمية والمنجزات البشرية فيما بعد، ويلاحظ في هذا الصدد أن تلك الحضارة كانت ـ وفقا للوجدان الإسلامي ـ حضارة الإنسان وليست حضارة الآلة كما حدث في حالة الحضارة الأوروبية، كما أن كل منجزاتها كانت لصالح الإنسان وليس العكس، ومثال واحد في هذا الصدد يعطينا دلالة قوية على ما نقول، فإن العلماء المسلمين كانوا قادرين إبان العصر العباسي مثلا على تحقيق الانشطار النووي. إلا أنهم لم يفعلوا ذلك لأن الإنسان لم يكن بحاجة إلى ذلك الانشطار، وإذا كان الانشطار النووي يعد أهم منجزات الحضارة الغربية اليوم ـ فإنه جاء عبئا على الإنسان وماردا بلا ضمير خرج من قمقمه ليكون قنبلة موقوتة فوق رأس عالمنا المعاصر[2].

***

في أواخر العصر العباسي كانت روح الوحدة قد ضعفت على المستوى الواقعي برغم تأججها عل المستوى الوجداني، وكانت قوى الكفر الخارجية قد بدأت تفيق من الضربة التي نزلت بها، وبدأت تلملم شعثها، وراح كبار الشياطين

(١) العالم القديم أو المعروف في العصور الوسطى هو العالم الذي يضم آسيا وأفريقيا وأوروبا حيث أن الأمريكتين واستراليا لم يكن قد تم اكتشافهما بعد.

(٢) من بحث للأستاذ فيصل شهوان عن العلماء المسلمين ويرى الأستاذ فيصل شهوان أن العلماء في العصر الأول ـ مثل جابر بن حيان ـ استطاعوا أن يحضروا الأحماض المركزة ولو ساروا في طريقهم لاستطاعوا أن يصنعوا القنبلة الذرية ولكن الروح الإسلامية البناءة ما كانت لتسمح بهذا.

ينفخون فيها روح الحروب الصليبية [1]. وكانت النتيجة المباشرة لحالة التفسخ التي وقعت فيها الأمة الإسلامية أن تعرضت أجزاء العالم الإسلامي لحملات مستمرة من أوروبا، وبعدها بقليل بجحافل التتار. غلا أن روح الجهاد التي لم تكن قد خفتت بعد. استطاعت أن تلفظ الاجتياح العسكري الصليبي. وأن تستوعب الجحافل التتارية. وأن تخرج منتصرة. وفي هذا الصدد لا بد أن نسجل هنا ذلك الدور الفذ الذي لعبه العلماء المجاهدون في إلهاب حماس الجماهير، وتعبئتها، والضغط على الحكام للقيام بأعباء الجهاد والتصدي [2].

ويشاء الله سبحانه أن يدفع إلى الأمة الإسلامية بقوة شابة صاعدة ممثلة في الدولة الإسلامية العثمانية ـ التي رفعت راية الوحدة والجهاد ـ فوحدت العالم الإسلامي من جديد، ودفعت الحدود الإسلامية باتجاه الاتساع في كل مكان، ولكن ما كان لهذه الدولة أن تستمر حيث إنها فقدت شرطا أساسيا من شروط الاستمرار وهو أنها استبدلت بقوة الجماهير المؤمنة المجاهدة نظاما عسكريا نظاميا، كان لا بد أن يتلاشى أو يسقط مهما كانت قوته.

كما أنها لم تمثل النظرية السياسية الإسلامية تمثيلا صحيحا، فغيبت الجماهير عن أداء دورها، وبديهي أنه مهما كانت قوة الدفع فإن الضمان النهائي والوحيد لاستمرار انتصار الأمة الإسلامية هو عدم عزل الجماهير عن أداء دورها، فالجماهير المؤمنة الواعية هي الضمان الوحيد لاستمرار رسالة الإسلام التحريرية، وهي الضمان ضد الانهيار والضغط على بنيان الأمة سواء من الداخل أو من الخارج.

وبالطبع فإن القوى الشيطانية قد وعت درس الحملات الصليبية جيدا وأدركت أنه لن يكفي ضرب الأداة العسكرية للأمة الإسلامية لإسقاطها، ولكن

(١) مثل الأب أربان الثاني.

(٢) مثل العز بن عبد السلام ـ وابن تيمية.

لا بد من ضرب الجماهير المؤمنة وطليعتها من خلال تدمير هويتها الإسلامية وتزييف وعيها وإخراج تلك القوة الاحتياطية الهائلة من الساحة تماما، وإلا فإنها ستظهر من وقت لآخر من تحت الرماد كنار عملاقة تحرق في طريقها ما يرجفون.

فكانت الحقبة الاستعمارية التي ركزت على هدفين:

١) محاصرة العالم الإسلامي (الكشوف الجغرافية) وضرب أداته العسكرية.

٢) عملية غزو ثقافي وحضاري شامل وغسيل مخ مستمر لتغييب وتدمير القوى الاحتياطية الكامنة (قوة الجماهير المسلمة وقيادتها الطليعية) وذلك عبر:

أ) تشجيع إقامة حكومات غير جماهيرية لا تسمح للجماهير بالمشاركة في أداء مهمات الحكم والحياة والجهاد، وذلك عبر خلق تناقضات طبقية واجتماعية، فتارة تسمح للبرجوازية (كطبقة) بالصعود إلى السلطة وتكريس حجب الجماهير عن أداء دورها « المرحلة الليبرالية »، أو غير خلق فئة «العسكرتاريا» بالتحالف مع قطاعات صغيرة من الطبقة المتوسطة وتحقيق تغييرات اجتماعية جزئية « دون مشاركة من الجماهير » ثم يتم مصادرة تلك المكاسب مرة أخرى في مقابل الضرب المستمر لقواعد الحركة الإسلامية وجماهيرها وقيادتها.

ب) خلق فئة من الرأسمالية الطفيلية « الوكلاء » المرتبطة بمصالح الغرب، وفئة من المثقفين المشوهين الذين يزاولون عملية غسيل المخ المستمر وقد تم ضرب القوى الطليعية الإسلامية عبر عدة مراحل:

- إسقاط الخلافة الإسلامية وضرب ما تبقى من النظرية السياسية الإسلامية.

- زرع كيان يهودي عنصري في قلب الأمة يحول دون ظهور تلك الطليعة مرة أخرى ويشكل ذراعا فولاذية لضرب تلك الطليعة، بل وضرب حتى مجرد

احتمالاتها الجنينية في رحم الأمة.

***

(٤)

سنحاول هنا أن نتوسع قليلا في شرح طبيعة المعسكرين المتضادين: المعسكر الإسلامي « القوى الربانية »، والمعسكر الكافر « القوى الشيطانية »، وهذا لأسباب كثيرة: لعل أهمها أن نفهم مهمات وأهداف ووسائل عمل كل معسكر، ليتسنى لنا ـ بالتالي ـ أخذ الموقف الصحيح تجاه كل تكتيك شيطاني، ولتتسنى لنا أيضا معرفة أخطاء الحركة الإسلامية، وبالتالي محاولة بناء رواية صحيحة من أجل تحقيق الانتصار الإسلامي المرتقب.

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق الكون، وجعل الإنسان خليفة في الأرض فإنه سبحانه قد صمم الكون بشكل متمل الحكمة، وملبيا لحاجات الإنسان، بل أن الله تعالى قد سخر الكون لخدمة الإنسان من ناحية. وليكون بتصميمه الفذ هاديا إلى الله ببساطة شديدة في كل صغيرة وكبيرة، أي أن كل ما في هذا الكون يقود إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة. كما أنه في المقابل زود الإنسان بالعقل وأعطاه كل ما يحتاج إليه لأداء الأمانة « أمانة الاستخلاف ».

وهكذا فإن التفاعل بين العقل والكون يقود إلى الله، بل بين العقل والنفس والروح والوجدان مع الكون يقود إلى معرفة الله.

ولم يكتف الله سبحانه وتعالى بذلك. بل لقد أودع في فطرة الإنسان قبل أن يستخلفه « معرفة الله تعالى » وأخذ عليه ميثاقا بذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (١).

(١) الأعراف آية (١٧٢).

كما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ذكر الإنسان من فترة لأخرى بذلك الميثاق عبر الأنبياء والكتب السماوية المنزلة، والعلماء الذين يدعون إلى طريق الله. وهكذا فإن الله ـ سبحانه ـ قد أقام على الناس الحجة الكاملة.

إن الله ـ تعالى ـ قد أنزل الإنسان إلى الأرض واستخلفه فيها وهو يحمل العدة الكافية لهذا العمل، ويمتلك الشروط الأساسية لهذه المهمة سواء بتركيب الكون ذات وتسخيره، أو بما ركب الله في الإنسان من عقل وروح وإرادة وتكييف جسدي فذ.

إننا حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض وتمعنا فيها وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أصيلا بالدور الذي بعث الإنسان لكي يلعبه وبالعمل والجدوى والنظام والغاية التي خلق من أجلها، ولتكون آية للإنسان ودليلا على وجود الله تعالى.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ (٢).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (٤).

---

(١) البقرة (٢٩).

(٢) الإسراء (١٢).

(٣) يونس (٥).

(٤) السجدة (٧).

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[1].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[2].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[4].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[5].

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾[6].

وهذا فإن كل شيء في الكون يثبت ـ وببساطة شديدة ـ الإعجاز الإلهي بدءا من تركيب الكون، وعلاقات النجوم﴿ ۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ

(١) فصلت (٩ ـ ١٢).

(٢) الروم (٨).

(٣) فصلت (٥٣).

(٤) فاطر (٢٧، ٢٨).

(٥) آل عمران (١٩٠).

(٦) فاطر (١١).

لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [1]. وإمساك الكواكب والنجوم، وتجهيز الأرض ورفع السموات بغير عمد، ثم خلق الجنين أطوارا، وهندسة الجسم الإنساني واختلاف الألسنة والألوان، وأسرار الجبال والنبات، الخ.. أي أن في كل شيء حكمة تثبت وجود الخالق العظيم وقدرته.

ثم الدعوة إلى إعمال العقل، وهناك عشرات الآيات تدعو للتدبر والتعقل والبصر والنظر والتفكير، وإذا كان هناك تفاعل حر بين العقل والكون فإن النتيجة الوحيدة هي الإيمان بالله بلا أي عوائق.

ولكن على الجانب الآخر تقف القوى الشيطانية، لتمنع هذ التفاعل الحر بين العقل وآيات الله في الكون، وذلك بمنع حرية التفكير، ومنع الحوار الحر بين الناس أيضا وذلك عن طريق الاستبداد السياسي، ووسائل الإعلام التخريبية. انظر إلى فرعون مثلا يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [2].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [3].

أي أن فرعون، وكل القوى الشيطانية تجمع الناس على رأي واحد، وتمنع الدعاة بالقمع والاضطهاد وبالاتهامات المختلفة.

ومن ناحية أخرى فإن الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان كل ما في الكون لخدمته ومساعدته على إنجاز الأمانة الموكولة إليه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [4].

---

(١) الواقعة (٧٥، ٧٦).

(٢) غافر (٢٩).

(٣) غافر (٢٦).

(٤) إبراهيم (٣٢).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾[2]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[3].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[4].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[5].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[6].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[7].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[8].

وتدبر تلك الآيات الكريمة يعطينا الحقائق التالية:

- أن الله تعالى خلق للإنسان من الثروات ما يلبي احتياجاته جميعًا دون قصور أو نفاد.

---

(١) إبراهيم (٣٢).
(٢) إبراهيم (٣٣).
(٣) إبراهيم (٣٣).
(٤) النحل (١٢).
(٥) النحل (١٤).
(٦) الحج (٦٥).
(٧) الجاثية (١٣)
(٨) إبراهيم (٣٢- ٣٤).

- أن المشكلة تكمن في الظلم أو الكفر، والظلم هنا بمعنى سوء توزيع الثروة والكفر بمعنى عدم استثمار الموارد بصورة علمية صحيحة.

ومحصلة كل ما سبق ميثاق القطرة آيات الله في الكون، تسخير الكون للإنسان، تزويد الإنسان بالعقل ـ تساوي مباشرة الإيمان بالله تعالى وأن تكون مواقف الإنسان وأعماله وأهدافه منسجمة مع الكون ونواميسه ومع السنن الإلهية؛ مما يترتب عليه إنجاز حضاري هائل وسعادة بشرية منقطعة النظير، وهذا ما سعى إليه الإسلام منذ اليوم الأول للخليقة وحتى الآن.

ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، فهناك القوى الشيطانية التي تحاول دائما منع كل هذا التفاعل الطبيعي بطرقها المختلفة؛ فعلى المستوى الشخصي هناك الإغواء الشيطاني، وعلى المستوى الجماعي هناك القوى الشيطانية التي تقوم بما يلي:

- منع الإنسان من حرية التفكير، وحرية المناقشة، وحرية الاجتماع، ومختلف الحريات حتى لا يسمع الإنسان إلا صوتا واحدا هو صوت الضلال، ذلك أن تلك القوى تدرك أن إطلاق حرية الإنسان سوف تقود الإنسان إلى اختيار طريق الله سبحانه، لأنه طريق الفطرة، وطريق العقل، طريق الانسجام بين كل ما في الكون.

- قمع الإنسان اقتصاديا وحرمانه ودعم الطبقات المُسْتَغِلة التي تكبل الإنسان بما أنه غارق في تأمين لقمة عيشه ـ من الوصول إلى الله.

- إراق الإنسان في الضلالات الاجتماعية المختلفة التي تعوقه عن الوصول إلى الإسلام مثل: الدعوات القومية، والعرقية، والعنصرية، والتعصب للعائلة، والقبيلة، والوطن.. الخ.

- والنتيجة الطبيعية لمثل هذا إنجاز حضاري متفكك، وتمزق بشري شامل وشقاء نفسي عميق، ومصير سيئ في الدنيا والآخرة. وهذا هو ما سعت إليه بالضبط المذاهب الوضعية.

- ومن هنا، فالصراع بين القوة الإسلامية، والقوى الشيطانية صراع ممتد إلى كل شيء: في النفس، وفي الجماعة، وفي المنهج، وفي العلم، وفي الاقتصاد وفي الحركة اليومية.

ووفقا للخصائص السابقة لكل قوة وأساليب عملها، فإن عمل الطليعة المسلمة يتمثل في أمرين:

- التربية: لمواجهة الإغواء الشيطاني.
- الجهاد: العسكري والسياسي والاجتماعي.

العسكري: لإزالة القوى الاستكبارية.

والسياسي: لانتزاع الحريات الإنسانية مثل حق التفكير الحر وحق الاجتماع وحق إصدار الصحف.. الخ.

والاجتماعي: بالتصدي لكل أشكال الظلم الاقتصادي وبناء المجتمع اللا طبقي وكذلك إسقاط الانتماءات القومية والعرقية والعائلية.

وبكلمة أخرى فإن الطليعة المسلمة، مطالبة بالانحياز إلى المستضعفين من البشر وقيادتهم في اتجاه انتزاع حرياتهم السياسية ومطالبهم الاقتصادية العادلة.

ومحصلة هذا كله أن يصبح الإنسان حرا في الاختيار، وبالتالي تحقق للفطرة والعقل والكون تناغمه البسيط والمنطقي الذي يقود إلى الله تعالى.

إن مهمة الطليعة المؤمنة ليست إكراه الناس على الإسلام، ولا التفكير بدلا عنها أولها، ولكن فقط تحقيق الظرف الحر للاختيار. أي إقامة الحجة على الناس، وبديهي أن الناس إذا ما انتفت عوامل الضغط تستجيب إلى فطرتها.

(٥)

كما قررنا من قبل، فإن دراسة التاريخ فريضة إسلامية، ودراسة التاريخ

المعاصر لمصر بالتالي فريضة إسلامية وواجب شرعي تمليه كثير من الظروف، وهذه المهمة تقع على عاتق الطليعة المؤمنة، وإذا كان من المسلم به أن التاريخ المعاصر لمصر قد تعرض لعملية تشويه مقصودة ومتعمدة من قبل المدرسة الاستعمارية فإن الواجب يصبح أوجب، والفريضة تصبح أكثر إلحاحا.

ومن البديهي أن مسألة دراسة التاريخ المعاصر لمصر هي أحد أهم شروط النصر الإسلامي المرتقب بإذن الله تعالى، ليس لأن التاريخ هو صانع المستقبل، وليس لأن فهم ما حدث سيجعلنا أكثرة قدرة على فهم ما سوف يحدث. وبالتالي يجعلنا ندرك خصائص القوى المعادية، ويجعلنا نرتب أولويات مهامنا في اللحظة الراهنة ولأعوام كثيرة قادمة فحسب. بل لأن التاريخ المعاصر لمصر هو الذي حدد ملامح اللحظة التي نعيشها، ومناخ شكل الصراع في عصرنا اليوم.

ومن نافلة القول أن دراسة التاريخ المعاصر لمصر مسألة لا يقدر عليها شخص، بل تحتاج إلى مجهود العشرات بل المئات من الباحثين الجادين، الذين يحبون بلادهم، ويكرهون أعداءها والذين هم على استعداد لبذل الجهد العلمي الدءوب من أجل ترسم خطى النضال اليومي للشعب المسلم في مصر.

إن المدرسة الاستعمارية، التي قدمت لنا تفسيرها المزيف، ورصدها المبتر لحركة التاريخ المعاصر في مصر، كانت تقصد ذلك عن سبق إصرار، وذلك لقطع ذلك التواصل الفذ لجهاد شعبنا المسلم في مصر بعضه عن البعض الآخر، وعن مجريات الأحداث في العالم الإسلامي الذي ترتبط مصر به عضويا بحكم التاريخ والجغرافيا.

كما أن تلك المدرسة أرادت أن تضرب وعي الشعب المسلم في الصميم وذلك لطمس معالم البطولة في تاريخه المعاصر، أو تفسيرها تفسيرًا إقليميا أو طبقيا أو غيرها من تفسيرات المدارس الاستعمارية، إنا سنضرب عددا من الأمثلة على تلك الطريقة التي عالجت بها المدرسة الاستعمارية تاريخنا المعاصر في

محاولتها الشيطانية لضرب حيوية الأمة والسير بها في مسارات جانبية.

- ترى المدرسة الاستعمارية مثلا ـ أن التاريخ ما هو إلا سلسلة من المؤامرات وأن القوى الكبرى مثلا هي التي تتحكم بمصائر شعوبنا، وهكذا فإن التاريخ لديها ليس إلا صراعات القوى الكبرى وانعكاسها علينا، ليس إلا تتبع حركة وزراء الخارجية والدفاع في الدول الكبرى، وتسقط تلك المدرسة عن عمد دور الشعب المسلم في صياغة حياته، وجهاد الدءوب الذي لم ينقطع يوما. وبديهي أنها تريد بهذه الطريقة أن تقول: أن شعبنا المسلم في مصر ليس له إلا دور ثانوي، وإن مصيرنا يتقرر في العواصم الكبرى. وبالتالي فليس علينا أن نجهد أنفسنا في العمل، بل علينا أن نقنع هذه العاصمة أو تلك بأهدافنا، أو نلعب على التناقضات بين تلك العواصم، والهدف الأخير من ذلك هو إخراج الشعب المسلم من العملية تماما.

- تحاول المدرسة الاستعمارية إغفال دور العلماء الشرفاء الذين قادوا الأمة في مواجهة الاستعمار والصهيونية، أو تحجيم دور هؤلاء العلماء، وذلك لأن المدرسة الاستعمارية تدرك أن التلاحم بين الأمة والعلماء هو الطريق الصحيح والوحيد لإنجاز أهداف أمتنا وتحررها وتقدمها.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى [1].

- تحاول المدرسة الاستعمارية دائما أن تقول أن جهاد الأمة وانتفاضها لم يكونا سببا في تقليل المد الاستعماري وتحجيمه ولكن العكس، بمعنى أنها تؤدي إلى كوارث وطنية ومصاعب للأمة. [2].

وعلى ذلك فالقوى الشريفة هي تلك القوى التي تصدت بالكفاح المسلح

(١) مثل عبد القادر الجزائري ـ عمر المختار ـ آية الله الشيرازي ـ عبد الكريم الخطابي ـ جمال الدين الأفغاني ـ عبد الله النديم.. الخ.

(٢) المرجع السابق.

للاستعمار: لأن الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة لمواجهة الاستعمار، وهي تلك القوى التي ربطت بين الاستعمار والاستبداد ووقفت مع المستضعفين، وهي تلك القوى التي آمنت بالوحدة الإسلامية وانتماء مصر الإسلامي.

ويمكننا اعتبار الاستعمار مجرد حلقة جديدة من حلقات الغزو الصليبي، وليس من الغريب أن يقف أحد القادة الأوروبيين على قبر صلاح الدين الأيوبي محرر القدس قائلا: « لقد عدنا يا صلاح الدين »[1].

والحقيقة أن التطور الرأسمالي للغرب يعود في مجمله إلى الظاهرة الاستعمارية على عكس المقولات الشهيرة بأن الاستعمار ناتج عن الرأسمالية، وهو ما أكده عدد من الباحثين من أمثال الأستاذ/ سعود المولى[2] أي أن الرأسمالية نشأت نتيجة تراكم الثروات والخامات والعبيد من المستعمرات، ولم يكن غريبا أن معظم كبار رجال البنوك وأصحاب المؤسسات الرأسمالية في الغرب كانوا في الأصل إما تجار رقيق، أو أصحاب مقاهي الأرصفة التي تدار عليها صفقات البيع والشراء للعبيد المجلوبين من المستعمرات.

وإذا كان الاستعمار يمثل القوى الشيطانية في عالمنا المعاصر، فبديهي أنه يستخدم أساليب تلك القوى الشيطانية، وهي أساليب الاستبداد، والظلم الاقتصادي في نشر الأفكار الاجتماعية المنحرفة والمذاهب الوضعية.

وبديهي أن الاستعمار كان قد استوعب درس الحملات الصليبية الأولى فلم يركز فقط على الغزو العسكري، بل مارس غزوا عسكريا وسياسيا وثقافيا مكثفا، وجاء نابليون معه بالعلماء، وتدخل المندوب السامي الإنجليزي في شئون البلاد

(١) مثلا يقول هيكل في كتابه خريف الغضب: أن انتفاضة الشعب في مصر في ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ قد أدت إلى تفكير السادات في زيارة القدس.

(٢) انظر كتاب د. عبد العظيم رمضان في كتبه «تطور الحركة الوطنية في مصر» حيث قسم القوي على النحو المذكور.

التعليمية والتشريعية كما قام الاستعمار بزرع مدارس التغريب ومؤسسات الاغتراب ونشأت مدارس أدبية ومناهج تعليمية وأفكار مغتربة، كما تم التلاعب في طرق الإنتاج ووسائله بطريقة تخدم الاستعمار. لقد ركز الاستعمار على إفقاد بلادنا شعورها الجماعي وروح الانتماء فيها. وقام بزرع ثقافته وأنماط فكره وحضارته ولغاته فينا، كما قام بتدمير كل صناعة وطنية محلية تعتمد في إنتاجها على السوق المحلية وراح يرسم سياسة اقتصادية تربط مصر بالعجلة الاقتصادية للغرب ولم يتسامح قط في ظهور صناعة محلية منقطعة الصلة إنتاجا واستهلاكا عن دوائره الاقتصادية.

***

(٧)

تعمد الاستعمار أن يزرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة ليكون -حائطا بين شرق الأمة وغربها، ولتكون إحدى أهم قوى الشيطان في المنطقة موجودة بداخلها، وجاهزة للعمل دائما وفورا خدمة لمخططات الشيطان، والكيان الصهيوني استغل فرصة رغبة الاستعمار لإقامة رأس حربة شيطانية في المنطقة وقدم نفسه للقيام بهذا الدور، وهكذا التقت رغبة قوتين شيطانيتين.

وفي الواقع أصبح التماس مع الكيان الصهيوني، وهو التناقض الأكبر في المنقطة، بل وأصبح المفتاح لهم كثير من معادلاتها.

وبأخذ الصراع بين القوة الربانية والكيان الصهيوني ورأس الحربة الشيطانية شكله الخاص إذا ما أدركنا أن هناك تناقضا جوهريا بين الطليعة المؤمنة وعموم الأمة وبين رأس الحربة الشيطانية (إسرائيل)، وأن هناك تناقضا ثانويا آخر بين الحكومات العربية وبين إسرائيل.

والتناقض الأول لا يحسمه إلا الكفاح المسلح، والثاني يحسم بالمفاوضات

أو بالحروب المحددة.

كما أن التناقض الأول لا يحسم إلا بفناء أحد الطرفين، ولا أرضية مشتركة أصلا بين الطرفين، والثاني يمكن أن يحسم بتحقيق شكل من أشكال التعايش وتبادل المنفعة بين الطرفين.

***

حضارتنا وحضارتهم تشريح جثة الاستعمار

مع صعود الحضارة الأوروبية وتفوقها على الكيانات الحضارية والسياسية الأخرى في القرون الثلاثة الأخيرة. انقسم العالم قسمين: عالم المستكبرين وعالم المستضعفين ولكل من المعسكرين سماته وخصائصه وتقسيماته أيضا:

وتمخضت الحضارة الغربية عن ثلاثة أنماط تحمل كلها خصائص تلك الحضارة وظلمها واستكبارها وهي: المذهب الحر والفاشية والشيوعية، وعانت البشرية على يد الأنماط الثلاثة التي تمخضت عنها الحضارة الغربية ويلات كبيرة ومظالم متعددة.

ويلاحظ أرنولد توينبي في دراسته لتاريخ الحضارات أن المنافسة بين الاتحاد السوفييت والولايات المتحدة على زعامة العالم، وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالي على اجتذاب ولاء البشرية موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي.

ولعل موريس توزريز زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي وأحد كبار قادة الحركة الشيوعية الدولية وأحد أبرز وجوهها المعدودين قد أكد هذه الحقيقة بقوله: « أن الناس في الجزائر وأفريقيا ليسوا شعوبا بل إنهم لا يزالون في دور التكوين » أي أن سيطرة الاستعمار الفرنسي عليهم ذات هدف ولا بد لهؤلاء الناس من أن يعيشوا فترة في أحضان الاستعمار وأن يتربو على يديه من أجل أن يصيروا شعوبا متحضرة. وهو نفسه ما قله الرئيس الأمريكي روزفلت عندما زار مصر.

ولقد قامت الحضارة الغربية أصلا على القهر والتدمير والاستعمارات وأدت إلى شكل كريه من العلاقات بين عالم المستكبرين وعالم المستضعفين. بل حتى داخل معسكر الاستكبار ذاته فإن قيم تلك الحضارة لم تعد قادرة على كبح جماح نفسها من أذية شعوبها ذاتها بالتلوث النووي وحرب الكواكب وتراسانات السلاح الشيطاني الذي إذا خرج من القمقم فسيدمر الجميع.

والرد الوحيد المتاح هو ظهور أيديولوجية بديلة تستند على قيم قادرة على إنقاذ المستضعفين من المستكبرين. وإنقاذ المستكبرين أنفسهم من المستكبرين وإنقاذ المستكبرين أنفسهم من أنفسهم.

وإذا ما ناقشنا عن الثقافات المتاحة في العالم فسنجد أن الإسلام وحده هو القادر على الاستجابة وإعطاء عالم المستضعفين أيديولوجيته القادرة على المواجهة والتحرير والإنقاذ، ويرجع ذلك إلى عدد من الأسباب، أولها أن الثقافة الإسلامية لم تندثر تحت وطأة الحضارة الغربية بل ما زالت قادرة على العطاء، وأنها أيديولوجية عالمية وليست محلية ـ وأنها ترتبط بصلات وثيقة بكل عالم المستضعفين وأنها أيديولوجية تمتلك في داخلها حيوية مذهلة.

إن نظرة على العالم تعطينا تقسيمة واضحة لذلك العالم، فهناك عالم من المستكبرين: عالم الحضارة الغربية (أوروبا ـ الولايات المتحدة ـ الاتحاد السوفييتي) وهي حضارة قامت على أكتاف الطبقة المتوسطة وفقدت سيطرتها على نفسها في أوروبا، وفي أمريكا قامت على أكتاف المهاجرين الذين دمروا السكان الأصليين وأبادوهم ثم عادوا وانقسموا إلى مهاجرين أوروبيين لهم السيادة ومهاجرين سود مستضعفين ومنبوذين، بل أن المهاجرين الأوروبيين البيض أنفسهم مارس بعضهم على البعض الآخر استكبارا وعنفا وقهرا تمثله الولايات المتحدة ضد سكان أمريكا اللاتينية، وفي الاتحاد السوفييت ساد الروس الأوروبيون ومارسوا قهرا واستكبارا على شعوب الاتحاد السوفييت الآسيوية.

وفي عالم المستضعفين نجد كل شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والملونين في أوروبا وأمريكا: وقد يبدو للبعض أن الصين مثلا قد اتخذت الطريق الشيوعي الذي هو إحدى نتائج الحضارة الغربية، لكن النظرة الفاحصة تؤكد أن الأمر لا يعدو قشرة خارجية ضعيفة ما تلبث أن تنقشع سريعا ليظهر عالم الصين المستضعف الحقيقي والمنحاز إلى معسكر المستضعفين، وقد يبدو للبعض الآخر أن الثقافة الهندية أو الصينية أو الإفريقية قد تكون أيديولوجية صالحة لعالم المستضعفين، إلا أن تلك النظرة قاصرة، فمن ناحية انتهت تلك الحضارات تماما وانقطعت، كما أنها حضارات محلية غير صالحة لمواجهة عالمية « الحضارة الأوروبية ».

وليس أمام عالم المستضعفين إلا طريقان ـ إما اعتناق الأيديولوجية الإسلامية القادرة على المواجهة وإنقاذ العالم، وإما الخضوع للحضارة الأوروبية التي عانى منها عالم المستضعفين آلاما ومآسي أكثر من قدرته على الاحتمال، فضلا عن أن تلك الحضارة لن تسمح له بحكم قيمها وتركيبتها أن يكون جزء منه: أن تلك الحضارة التي قامت على الطبقة الوسطى الصناعية وعلى الاستعمار وفتح الأسواق، لن تسمح بقيام طبقة متوسطة في عالم المستضعفين تضطلع بمهام الاندماج في تلك الحضارة، لأن ذلك معناه فقدان امتيازات ومكاسب عالم المستكبرين، أن عالم المستكبرين قد رسم طريق الاندماج والالتحاق به عن طريق نخبة مثقفة بثقافة غربية تقوم بمهمة الوكيل والشرطي: الوكيل الذي يصدر الخامات والعبيد، والشرطي: الذي يقمع أي محاولة للتصدي للنهب وكشف أساليب الاستكبار، وهكذا ليس عجيبا أن تظل كل بلاد العالم المستضعف محكومة لتلك النخبة المثقفة دون أن تظهر فيها الطبقة المتوسطة الصناعية.

إن المفارقة الجديرة بالتسجيل والملاحظة أن اليهود قد عانوا من الاضطهاد والتشريد على يد الحضارة الأوروبية في كل بلادها بلا استثناء مما كان يجعلهم في صف المستضعفين، إلا أنهم استجابوا للإغراء الاستكباري، وانحازوا إليه

وأصبحوا جزءا منه، وبدلا من أن يقفوا ضد جلاديهم تجمعوا وراحوا يمارسون دور الجلاد نفسه ودور الحليف للاستكبار في العالم وشردوا شعبا مسلما هو شعب فلسطين وأقاموا دولة استكبارية عدوانية تقوم بأقذر الأدوار خدمة للاستكبار.

***

إذن فليس أمام العالم المستضعف إلا طريق المواجهة، وليس أمام من خير إلا تلك المواجهة تحت راية العقيدة الإسلامية، وإن الواجب التاريخي يقتضي من الأمة الإسلامية وطلائعها أن تنهض بهذا العبء وأن تمد صلتها وروابطها بكل عالم المستضعفين في الأرض تمهيدًا ليوم الخلاص والتحرر لعالم المستضعفين من قبضة المستكبرين، وإنقاذ المستكبرين من أنفسهم، وإرساء معالم عالم جديد تسوده العدالة والحرية والإخاء.. عالم ينتهي منه الفقر والجهل والمرض.

والإسلام لم يعرف الركود منذ أن ظهر وإلى الآن، ولم ينحصر جغرافيا - فالإسلام كدين لم يتوقف عن الانتشار حتى في القرون الخمسة الأخيرة التي شهدت صعود نجم الغرب، في هذه الفترة بالذات انطلق الإسلام إلى أفريقيا لنجد أن أفريقيا اليوم أصبحت نصف إسلامية وربما تكون في المستقبل القريب قارة إسلامية بالكامل.

وفي الفترة نفسها دخل الإسلام إلى شرق آسيا واستقر في بلدان مثل كوريا والفلبين وتايلاند وسواها حيث لم يمكن موجودًا هناك.

وفي التاريخ المعاصر أيضًا دخل الإسلام إلى قلب العالم الغربي: إلى أمريكا ذاتها، وانطلاقة الإسلام في الولايات المتحدة هي انطلاقة في قلب الغرب، والإسلام هناك اجتماعي، إنه ينتشر أن السجناء الذين كانوا غارقين في المخدرات والموبقات الأخرى، هذه معجزة الإسلام الحقيقية، أنه زهرة تنبت في وسط

مستنقع.

والإسلام حي لم ولن يموت، والعثمانيون كادوا يحتلون النمسا في ١٦٨٣ بل كادوا يحتلون أوروبا بكاملها واستمروا كإمبراطورية حتى الحرب العالمية الأولى.

وظهرت الخلافة الصوكية في بداية القرن العشرين في غرب أفريقيا، والإسلام ما زال مؤثرا على المستوى الثقافي وترك بصمات واضحة على جميع الهنود على اختلاف أديانهم وأخيرا هناك الثورة الإيرانية، إذن فالحضارة الإسلامية ما زالت حية وتقدم كل يوم دليلا جديدا على حيويتها.

***

إن العالم منذ صعود الحضارة الغربية « عنفا أسود »، ففي غضون ٣٠ سنة فقط أبيد حوالي ٢٥ مليونا من الهنود الحمر وهو رقم كبير جدا إذا ما علمنا أنه في تلك الفترة كان عند سكان بريطانيا مثلاً هو ثلاثة ملايين نسمة ـ وقامت تلك الحضارة ذاتها بإبادة حوالي ١٠٠ مليون أفريقي كانوا يموتون من جراء المعاملة السيئة في المراكب ومن جراء القتل والحرق: ومعنى ذلك أن هؤلاء الـ ١٠٠ مليون زنجي الذين أبيدوا « يعادلون حوالي ١٠٠٠ مليون الآن »، كانوا كفيلين بجعل أفريقيا كبرى القارات في العالم.

وفي الجزائر ـ مثلا ـ قام الاستعمار الفرنسي بنقل وتفريغ مليونين من السكان (كانت الجزائر وقتها ٤ ملايين) أي أنهم قتلوا نصف السكان في عملية الاحتلال ثم راحوا يقتلون مئات الألوف كل عدة سنوات مع كل انتفاضة.

إن الصورة بداية من قتل الهنود الحمر، وإبادة الزنوج والعرب إلى جرائم هتلر وموسوليني وستالين مرورا على كرومر ونابليون واللنبي وبيجو إلى ومنا هذا ترينا أن هناك خيطا واحدا متسلسلا بمنطق واحد، حلقة بعد حلقة، والحرب العالمية

التي انتهت باستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان، وقد كان عدد القتلى في تلك الحرب ٦٢ مليونًا من البشر ـ ثم أفران الغاز وجرائم ستالين المروعة وصولا إلى ما فعلوه في بيروت وفلسطين، إنها الحضارة الغربية: حضارة القتل والذبح والتدمير والحروب والقنابل الذرية والتلوث والإبادة والجوع النفايات وإفساد البيئة.

***

الحضارة الغربية نمت وظهرت على أساس فكرة خبيثة هي فكرة المنفعة اللا أخلاقية وأدى هذا إلى الاستغلال والسيطرة والصراع والعنف والقتل.

وتمخضت تلك الحضارة عن إبادة أجناس كاملة مثل الهنود الحمر، وعن استرقاق الزنوج، وعن ظهور طفل خبيث هو الاستعمار الذي هيمن ولم تقف حدود هيمنته إلا عند آخر حدود الأرض من حوله وما زالت هذه الهيمنة قائمة ومستمرة إلى يومنا هذا وإن كانت الأساليب قد تبدلت وتغيرت: ـ

- تمخضت تلك الحضارة المريضة عن حروب داخلية وقمع بشع وحربين عالميتين عام ١٩١٤ وعام ١٩٣٩ وذهب في الأخيرة وحدها ستون مليونا من البشر.

- أدت تلك الحضارة إلى ظهور نماذج مثل هتلر وستالين وموسوليني.

- أدت إلى إعدام الزراعة في كثير من بلدان العالم، خصوصا النامية وأدت إلى المجاعة التي يموت بسببها سنويا خمسون مليونا من البشر ضمنهم خمسة عشر مليون طفل، ومأساة الجوع هذه تتضخم بسرعة هائلة بسبب القضاء على الزراعة، وقد بقيت الولايات المتحدة وحدها القادرة على تصدير الغذاء وهذه لن تبيع الغذاء لك إلا إذا كنت شخصا مرضيا عنه.

- وهناك ١٧ مليون هكتار من الغابات يتم القضاء عليها سنويا وهي عنصر

التوازن البيئي الأول (انتهى ٤٠ ٪ من الغابة الاستوائية).

- وفي ألمانيا ذاتها ستنتهي الغابة السوداء الشهيرة خلال عشر سنوات كما انتهت بالفعل غابات أخرى في ألمانيا وسويسرا وغيرها، هناك زحف الصحراء وهناك مأساة التلوث البيئي التي تتكشف أخطارها في كل يوم.

- هناك ٤١ دولة مفلسة (من أصل ١٢٣ دولة) لا تستطيع حتى أن تدفع فوائد ديونها وهي شعوب تعيش متسولة أشبه ما تكون بوضع البعير في الماء بالكاد يبقى رأسها فوق الماء للتنفس ولا تموت بسرعة، وهذا الوضع ليس مرشحا للنقصان بل العكس. البنك الدولي نفسه يقول أن ٤١ دولة يمكن أن تصبح مائة دولة.

- إن ٣/٤ البشرية اليوم لا يعيشون بينما الـ ١/٤ يحظى بكل شيء ويستهلك كيفما يشاء والأخطر أن هذه النسبة تزداد تضخما فتصبح ٤/٥ ثم ٥/٦ وهكذا.

- هناك اغتراب بسبب تقسيم مجحف وغير طبيعي للعمل إلى أجزاء صغيرة.

- إن فرنسا مثلا فيها تسعة ملايين كلب و ٨ ملايين قطة تستهلك ما مجموعة (٢٣٠٠٠) مليار فرنك قديم سنويا بينما ميزانية الصومال لا تتجاوز ٤٠٠ مليون دولار ـ أي أن كلاب وقطط فرنسا تأكل عشر مرات أكثر مما يأكل الشعب الصومالي كله.

- إن النظام الذي تمخضت عنه هذه الحضارة ينظم الأزمات متعمدا ويخلقها ويوزعها على الدول الفقيرة والمتخلفة، وهي حلقات مترابطة من إفلاس الدول إلى المجاعة وإلى أزمة البيئة وإلى التصحر: إنها أزمة حضارة كاملة.

***

العالم الاشتراكي اليوم يتحرك باتجاه الالتحاق بالعالم الرأسمالي، كان من المتصور في أول الأمر أن الماركسية ـ أو الاشتراكية ـ ستبني إنسانا مختلفا عن

مثيله في النظام الرأسمالي، وبالذات فيما يتعلق بالاستهلاك، لكن الواقع أن الأحزاب الشيوعية ذاتها سواء في المجتمعات الشيوعية أو غيرها هي التي تقرر بنفسها عاما بعد عام اللحاق بالمجتمع الغربي في كل شيء ثم الالتصاق به في النهاية [1].

كنا نتوقع نوعية أفضل للإنسان الذي سيفرزه العالم الاشتراكي، رجلا مختلفا وامرأة مختلفة، عندهما قيم مختلفة، ولكن الذي وقع أن الإنسان في المجتمعات الاشتراكي مثله في المجتمع الرأسمالي يلهث وراء الاستهلاك، وربما أكثر من مثيله، ثم أن الأزمات داخل العالم الاشتراكي أكثر من مثيلتها في المجتمع الرأسمالي يلهث وراء الاستهلاك، وربما أكثر من مثيله، ثم أن الأزمات داخل العالم الاشتراكي أكثر من مثيلتها في المجتمع الرأسمالي، حتى أن الحياة عندهم لا تطاق: أن كبار رجال الدولة السوفيتية مثلا يعترفون وبالأرقام والمعلومات الدقيقة والمفصلة بصورة واضحة مؤداها أن العالم الاشتراكي يحتوي على الأمراض نفسها الموجودة في العالم الرأسمالي من الرشوة إلى الفساد حتى في جهاز العدل.

الشيوعية ظهرت اليوم على حقيقتها إفرازا ثانيا للأرضية الثقافية التي أعطت الإفراز الأول، ومن يتعمق في التاريخ وفي الوسيولوجيا فسيجد أن هذا لم يحدث منذ سنوات مثلا، ولكن منذ اللحظة الأولى، أن الثورة الروسية في اللحظة الأولى وقفت موقف التواطؤ مع البريطانيين ضد ثورة كوتشك فإن الإسلامية وطحنوها معا. والتخلي عن العالم الثالث أصبح شيئا ملازما للطبع والسياسة السوفيتيين، كما أن ستالين مثلا قتل سلطان غاليف وحاول قتل المفكر الهندي « روي » لأنهما كان يتكلمان عن التعاون مع العالم الثالث.

(١) وكذلك الانتفاضات الفلاحية في قرى الريف المصري ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ انظر كتاب محمد مورو «دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع» دار البحوث العلمية ١٩٨٠.

هذه الأشياء وغيرها هي التي دمجت النظامين معا ثم جاءت يالطا لتكشف كل شيء على حقيقته؛ يالطا على الأرض ويالطا أخرى في السماء حيث التحمت مركبة الفضاء السوفيتية سويوز مع مركبة الفضاء الأمريكية أبولو، أليس هذا تعبيرا عن أشياء كثيرة. وأخيرا هناك احتلال أفغانستان. وقبله كان اجتياح المجر وبولندا وغيرهما.

الحضارة الغربية أفرزت عدة أشكال سياسية وأيديولوجية تنتمي للأرضية نفسها وتؤكد المنطق نفسه « منطق الربح ». الرأسمالي في الغرب بين أيدي الأفراد بينما هو في الشرق بين أيدي الدولة ولكن الأمر بالنسبة للعمال لا فرق فيه ـ المنطق نفسه.. العلاقة نفسها ما بين العامل والدولة حيث تقوم على المضاربة على جهد العامل أي على الربح، إذن فالسوفيت خلقوا الدولة الرأسمالية في التاريخ والحقائق نفسها تقول أن بولندا مثلا مفلسة وعليها من الديون ٢٥ مليار دولار منها ثمانية مليارات للغرب، والآن وضعت خطة تنموية للإصلاح، الغرب هو الذي يمولها بالدرجة الأولى، والاشتراكية الآن أشبه ما تكون برجل مريض والرأسمالية أشبه ما تكون برجل يقدم الدواء للمريض فلمادا تدعمها إلى هذا الحد؟!

وهذا الكلام لرئيس شركة فيات للسيارات الإيطالية ـ الذي يقم مصانعه في الاتحاد السوفيتي، والشركات المتعددة الجنسيات ـ التي تحكم العالم في الحقيقة، والتي تفوق ميزانية إحداها ميزانية دول بكاملها هي ذاتها التي تدعم الدول الاشتراكية، ولنراجع مثلا ما كتبه رئيس نقابة الكيمائيين في العالم الذي ألف كتابا عنوانه « كوكاولا وفودكا » وهو يعطي صورة عن لقاء دائم بين مدراء الشركات المتعددة الجنسيات ومسئولي الدول الاشتراكية يتفاوضون ويلعبون الجولف ويصوغون حياة واحدة.

إذن فالاستكبار واحد؛ وهو نتيجة حتمية للحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي

والاشتراكي، انظر مثلا إلى وزير الدفاع الفرنسي عام ١٩٤٥ وكان شيوعيا هو الذي أمر سلاح الطيران الفرنسي بقصف الشعب الجزائري، والحزب الشيوعي الفرنسي بل والجزائري كانا يحثان دوما على الإبادة في مواجهة الانتفاضات الجزائرية.

***

إذن ففكرة الخلاص عن طريق الشيوعيةوهم، لأنها جزء من معسكر الاستكبار بل أن معسكر الاستكبار نفسه يريد لنا سلاحا مزيفا حتى يظل جاثما فوق أنفاسنا، أن فكرة الفئة التاريخية « الطبقة العاملة » التي ستقوم بالثورة هي في حد ذاتها جزء من الزيف الاستكباري؛ فمن ناحية لم يقم العمال كطبقة بالثورة لا في الصين ولا في كوبا ولا في الجزائر وإنما الفلاحون. والعمال الغربيون اقتنعوا باقتسام المغانم مع الرأسمالية على حساب الشعوب المستضعفة؛ في الجزائر مثلا كان موقف العمال الفرنسيين استعماريا أكثر من العسكريين، وكانوا في المعارك أشرس من قاتلي الثورة الجزائرية، بل كانت آخر المعارك معهم بالذات في حي «باب الواد » في العاصمة، ومن ناحية ثانية فإن العمال كطبقة أصبحت نسبتهم تتراوح بين ٨ ٪ و ١٠ ٪، إذن فلا قدرة لهم على الثورة اليوم.

إن كل هذا يؤكد أن المستضعفين من كل المهن (عمالا ـ فلاحين ـ مهنيين ـ موظفين) هم القادرون على الثورة ووقف مسلسل الظلم والقهر في العالم، ولكن كيف ذلك؟ هل بأيديولوجية نابعة من نفس الأرضية الثقافية للاستكبار أم بأيديولوجية نابعة من أرض المستضعفين؟.. إذن فلا حل إلا بالإسلام وبالأيديولوجية الإسلامية.

***

والمهمة الأولى التي على طلائع المسلمين أن يعوها ويقوموا بها هي ضرب وتصفية أي ثقافة في داخل أمة الإسلام، والشعوب المستضعفة تكون مصابة

بالانتماء العضوي للنظام العالمي الغربي؛ لا بد من إبداع ثقافة خارج إطار الحضارة الغربية. وهذه الثقافة المستقلة هي الإسلام. انظر مثلا إلى بعض التشوهات التي ترد إلينا من الغرب وتريد أن تزدهر داخلنا كبديل أو بالتوازي مع الثقافة الإسلامية أو حتى بالاندماج بها بهدف ظهور جنين مشوه غير قابل للاستمرار والمواجهة.

وإذا كنا قد عرفنا أن الشيوعية أو الاشتراكية تنبع من الأرضية الثقافية الغربية نفسها، فالأمر ذاته ينطبق على القومية عموما، وعلى القومية العربية خصوصا التي يحاولون إبرازها بالتوازي مع الإسلام لتشويهه، أن تأثير الفكر الأوروبي في بلورة القومية العربية كان واضحا، فهي ليست أطروحة نابعة من صلب الإسلام، بل إنها نتيجة مخاض غربي وبتوجيه غربي رجاءت كمقابل للإسلام، فكانت أولى انزلاقاتها مخاصمة العثمانيين، وساهم فيها بنشاط المسيحيون العرب، ويمكن الآن أن تربط بسهولة بين ميشيل عفلق، والبرسوناليزم في فرنسا، يمكن أن تربط بين دعاتها وقادتها والتيارات الغربية بوضوح وبساطة. انظر مثلا إلى حزب البعث باعتباره الأكبر والأغلب في هذا الإطار ـ قام هذا الحزب مثلا بدور مشبوه لفض الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٦١ وكذلك إفشال الوحدة الثلاثية في عام ١٩٦٣. وهكذا كان بين مصر وسوريا ١٩٦١ وكذلك إفشال وكذلك إفشال الوحدة الثلاثية في عام ١٩٦٣. وهكذا كان البعث كارثة على العرب ذاتهم، انظر أيضا حركة القوميين العرب التي ظهرت في الخمسينيات وأوائل الستينات ودعت إلى التعصب القومي والعنف القومي سرعان ما انهارت وتحجرت الفكرة عند الجانب الثقافي واتجهت غربا وأصابتها أمراض الغرب وتحولت إلى فرق يسارية. أن القومية العربية ببساطة معناها أن ننعزل كعرب عن باقي المسلمين وعن باقي المستضعفين ومعناه خسارة المعركة مع النظام العالمي الشرير، معناها خروج الجزائر والسودان وغيرها لأنها عرقيا ليست عربية مثلا.

***

إذن فقد أصبح من الأمور المعلومة بالضرورة أن النظام العالمي الحالي القائم على الحضارة الغربية هو نظام شرير ومجرم ومستكبر. وأن مقاومة ذلك النظام أمر حتمي من أجل خلاص البشرية، وأن التصدي لهذا النظام لا يمكن أن يكون بأدوات من داخله. وأن الإسلام هو الظاهرة الثقافية الوحيدة التي تنبع من خارج هذا النظام وهو وحده القادر على الحشد والتعبئة والمواجهة، أي أنه أيديولوجية المستضعفين وهذا الأمر ذاته يفجر سؤالا جديدا حول تقييم الحركة الإسلامية المعاصرة باعتبارها الحامل لهذه الأيديولوجية، وهناك أيضًا دول إسلامية تقول إنها تطبق الإسلام أو الشريعة الإسلامية، وهذه الأمور هامة جدا أن نقيمها حتى لا نقدم بديلا ناقصا أو عاجزا أو مغرقا في الجزئية.

إن النظام العالمي. هو منهج متكامل وشرير، وعلينا أن نقدم منهجا متكاملا وخيرا، وعلى الحركات الإسلامية أن تعي هذا وأن تقدم لهذا المنهج، هذه مسؤوليتها. عليها أن تتعاون في هذا وأن تقوم بالنقد الذاتي لنفسيها وأن يحاور بعضها بعضا. وعليها أولا وأخيرا أن تعي أنها طليعة أمة الإسلام وطليعة المستضعفين.

وفي مصر مثلا هناك رافدان للحركة الإسلامية عموما: رافد ثوري ومنهجي مستمد من الأفغاني والنديم ورافد جزئي ومنعزل مستمد من محمد عبده الأول يرى على طريق المواجهة مع الغرب والثاني تلفيقي يرى الاستفادة والالتقاء مع لغرب.

لا بد إذن أن نفهم النظام العالمي الحالي، وننظر إلى تاريخه، ونرى إمكانات لخروج من ربقة الهيمنة الدولية وشبكات الاقتصاد والثقافة والقانون وكل لخيوط والخطوط التي ينسج بها علاقاته التحكمية الطاغية. وإذا لم نفعل ذلك لن نعرف كيف نواجه النظام العالمي السائد؛ لأنه مؤسسة مترابطة عضويا يسيطر عليها الغرب منذ خمسة قرون، وهذا النظام تطور الآن إلى التكتلات

الكبرى، وهذا يطرح قضية الوحدة؛ فإما الوحدة وإما الموت، لا بد من ترجمة صحيحة للإسلام تستوعب تلك المشاكل، يجب أن نجتهد ونجيب عن العديد من الأسئلة: كيف تتوحد؟ كيف نواجه الإمبريالية والعنصرية والصهيونية؟ كيف نجد التنمية البديلة؟ كيف نتفادى المجاعة؟ كيف نحقق ثورة في داخل الحركات الإسلامية وداخل الأمة الإسلامية بشعب نستطيع أن نقدم أيديولوجية إسلامية تكون لكل المستضعفين؟ كيف يمكن لشعب من الشعوب غير الإسلامية أن يتبنى النظام الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي؟ كيف تكون فكرة التكامل، والتعاون بديلا عن الصراع والربح، وللإسلام تجربة فذة في هذا الإطار حيث كان ربع الأملاك في العالم الإسلامي موقوفا على أعمال البر والخير مثلا.

إن هناك الآن عددا من النقاط التي يجب أن تحظى بالاهتمام والبحث: كيف نخرج من النظام العالمي؟ ونقيم بديلا ليس للمسلمين وحدهم وإنما من أجل العالم كله؟ كيف نحقق الوحدة؟ كيف نتقي ضربات النظام العالمي الشرير في مرحلة البداية؟ كيف تخرج من سيطرة هذا النظام على الغذاء؟ كيف نؤسس بحثا علميا هدفه نموذج آخر للتنمية هدفه الإنسان وليس الرفه والاستهلاك؟ كيف نضرب المفهوم الفلسفي الساعي للربح والتجارة والاستغلال والهيمنة؟ كيف سيكون وضع الأقليات؟ وصحيح أن الإسلام في تجربته السابقة كان الأكثر تسامحا إلا أن من حق تلك الأقليات أن تعرف وضعها في ظل الأيديولوجية الإسلامية. ما وضع المرأة التي كرمها الله وأعطاها الإسلام كل الحقوق، وما الضمان حتى لا تظهر نزعات متخلفة من داخل الفكر الإسلامي تجاه هذه القضية.

استخدمت الحضارة الغربية الشريرة ـ وما تمخض عنها من نظام عالمي ظالم واستعمار، وإمبريالية ـ عددًا من التكتيكات الاستعمارية في محاولة شل قوى المستضعفين واستمرار السيطرة عليهم، وكان العنف هو السمة السائدة والأهم في هذا الإطار، كان العنف لكسر صمود وقوة الذين هبوا للدفاع عن بلادهم،

وكان القهر والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي، وكانت السجون والمعتقلات والمشانق نصيب كل من يفكر أن يتصدى للاستكبار، وعملاء الاستكبار، كانت السمة الثانية بعد العنف والقهر هي التجزئة وضرب كل مقومات الوحدة والتوحيد. وإذا أخذنا العالم الإسلامي كمثال؛ فقد تمت تجزئة الدولة العثمانية إلى دول عدة، أما العرب فقد تمت بعثرة بلادهم إلى أجزاء كثيرة، وقد يتصور البعض أن ذلك حدث بسبب الصراع الفرنسي ـ البريطاني، حيث اقتسم كل منهما أجزاء خاصة به ولكن لو كان الأمر كذلك لأخذت التجزئة العربية الانشطار إلى جزئين كبيرين أو ثلاثة، بينما الذي حدث أن المناطق التي وقعت تحت سيطرة الاستعمار الواحد جزئت تجزيئا؛ فلبنان فصل عن سوريا وكلاهما تحت الانتداب الفرنسي، والأردن فصل عن فلسطين وفصل العراق على حده؛ وكذلك دول الخليج ومصر والسودان وكلها كانت تحت نفوذ الاستعمار البريطاني. واستهدف الاستعمار من التجزئة تحقيق الفصل الحضاري والثقافي وإضعاف تلك الدول وخلق مشاكل بينها تؤدي إلى صراعات لا نهاية لها، وهذا واضح مثلا في التقسيم بين لبنان وسوريا أو بين الأردن والسعودية أو بين المغرب والجزائر أو بين اليمن الشمالي والجنوبي أو بين تركيا وسوريا أو بين العراق وإيران، وفي كل الحالات أبقيت هنالك مطالب لهذا الجزء بأراضي الجزء الآخر أو المطالبة به كله باعتباره اقتطع من الإقليم المعنى، وانتهت خريطة التجزئة إلى ما ترى الآن أمام أعيننا من عشرات الدول؛ فالبلاد العربية وحدها جزئت ليقوم بها واحد وعشرون أو اثنان وعشرون كيانا، ولم يكن مخطط التجزئة ضمن ما حدث على أرض الواقع فقط، بل كانت هناك مخططات إضافية لم يستطع الاستعمار ـ لسبب أو لآخر ـ تنفيذها، فعلى سبيل المثال كانت خطة فرنسا تقضي بأن تجزأ سوريا إلى ثلاث دول أو أربع، وكانت هناك خطة لتقسيم المغرب إلى خمس دول على الأقل، وكذلك كانت الحال بالنسبة لشبه الجزيرة العربية، ولعل النموذج الأمثل الذي كان التفتيت يريد أن يذهب إليه هو ذلك التفتيت الذي نراه في الخليج

الآن، ويعلق الأستاذ منير شقيق في كتابه الهام « الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر » على هذه الأمور قائلا: « التمزيق شر ممزق، البعثرة إلى أشلاء متناثرة، التقطيع إربا إربا، هذا ما فعله الوحش الغاضب بفريسته التي طالما صارع للإيقاع بها وكانت تستعصي عليه، فأعد المخططات للانتقام منها والثأر لهزيمته الكبرى في الحروب الصليبية، إنها التجزئة المؤدية إلى إقامة الحدود الدولية فيما بين أجزاء الأمة الواحدة وسن قانون للجنسية في كل جزء تماما كما هي الحال فيما بين الدول القومية، وإقامة دولة من الطراز الغربي داخل كل جزء بحيث يصبح مع مضي الأيام جسما غريبا عن أشقائه وبحيث تتكون داخله مع الأيام أنظمة وقوانين خاصة به، وتنشأ فئات ذات مصلحة في بقاء الكيان وإدامته ويقوم الاقتصاد ـ ولو مشوها ـ على أساس الكيان باعتباره دولة قائمة بذاتها وتنشأ أفكار وعقلية ووطنية خاصة بالكيان ـ ويعبر شعب كل كيان تجربة تاريخية في الصراع مع الاستعمار بعيدا عن مسار أشقائه، وتنشأ زعاماته وأحزابه وجرائده وحركاته الخاصة به بعيدا عن مسار أشقائه، وبهذا لا يبقى فعل التجزئة عملا قسريا تفرضه حراب المستعمرين، وإنما يصبح واقعا تكوينيا موضوعيا له مؤسساته الموضوعية والذاتية وله بناه التحتية والفوقية وما إلى ذلك؛ وبهذا تنشأ دول ووطنيات وأمم يصبح أقصى الأمنيات معها أن تتضامن وتنسق فيما بينها، بل تصبح أقصى الأمنيات ألا يشتبك بعضها مع البعض في صراعات أو حروب، وبهذا تصبح الوحدة مستحيلة، ويصبح العجز مقيما وعندما نضيف إلى ذلك حتمية الصراعات فيما بين هذه الكيانات التي قامت بصورة مصطنعة سواء كانت صراعات على الحدود أو مواقع النفوذ أو الزعامة أو نوع التبعية للخارج، أو منافسات فيما بين أجزاء على أجزاء أخرى، ناهيك عن دور الدول الكبرى في التلاعب من خلال هذه الصراعات وناهيك عن طلب النجاة بالسلطة في الإقليم ولو على حساب مصالح الإقليم ذاته أو الأمة كلها، وكل جزء عليه أن يتدبر أموره ضمن معطياته البشرية والمادية والذاتية، فإذا بمن يملك القدرة البشرية فقير إلى المال ومن يملك المال

فقير إلى القدرة البشرية ومن يملك الإمكانات الاستراتيجية لا يملك الإمكانات المادية والبشرية التي تسمح له بالإفادة من إمكاناته.. أي يجب على كل شيء أن يسير عكس ما هو طبيعي ومعقول بالنسبة على أمة واحدة.

وبالإضافة إلى العنف والاستبداد والتجزئة قام الاستعمار بنشر التغريب الفكري والحضاري، وإذا كانت القوة العسكرية حققت للمستعمر إنزال الهزيمة العسكرية بالمستضعفين، وإذا كانت التجزئة أقامت لسيطرته أساسا موضوعيا ماديا فإن هذا وتلك ما كانتا لتجديا تمام ما لم تقع الهزيمة في العقول والنفوس والإرادة، وما لم تتجه الأفكار والثقافة والحضارة والمؤسسات داخل دولة التجزئة باتجاه تكريسها وتطلبت هذه وتلك القيام بمهمة مزدوجة تعبر عن سمتين أولاهما محاربة الإسلام وإبعاده عن العقول والنفوس والإرادة ونفيه عن الثقافة والحضارة والمؤسسات، وثانيتهما إعادة صياغة الأفكار والثقافة والحياة الحضارية والمؤسسات على أسس عربية بحيث تصبح مدار التفكير والفلسفة الغربية هي النماذج وهي الدليل لفكر الشعوب المستضعفة أو على الأقل بالنسبة إلى فكر قادتها وأهل الرأي فيها وبحيث تحل قيم الحضارة الأوروبية الغربية مكان القيم الحضارية الإسلامية فتتغير الأخلاق والعادات وتتغير أساليب الحياة في المأكل والملبس والمسكن والتربية على أساس الأخلاق والعادات والأنماط الحياتية الغربية وتقوم مؤسسات دولة التجزئة وجيشها وأمنها العام وحكومتها ومدارسها وجامعاتها وأجهزة إعلامها ومختلف وزاراتها ودستورها وقوانينها ومحاكمها على الأسس الغربية للدولة الحديثة ومؤسساتها وكذلك بالنسبة إلى المؤسسات الخاصة الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية الأخرى، وفي هذا المضمار نذكر قيام الاستعمار بإبعاد الشرع الحنيف واستبدال القوانين الغربية به وإلغاء المنهاج الإسلامي من المدارس والتعليم وتحطيم كبريات الجامعات الإسلامية، إما بالإهمال وإما بعدم الاعتراف بشهاداتها وإما بدعم الجامعات

والمدارس ذات النمط الغربي، وعمدوا إلى الإنقاص من قدر العلماء والمثقفين الإسلاميين. إما من خلال الصمت والتجاهل وإما من خلال التهكم على ثقافتهم باتخاذ الثقافة الغربية معيارا للعلم والثقافة وعملوا على إبعادهم عن المراكز العامة بما في ذلك مراكز القضاء المدني والتدريس وأخذوا جامعيين متغربين مكانهم يطبقون القانون الوضعي والمناهج العلمانية ثم سعوا إلى وضع الأوقاف الإسلامية والمساجد تحت سلطة الدولة المتغربة حتى تتحكم بأرزاق العلماء والوعاظ وما تبقى من معاهد إسلامية، كما عمدوا إلى تشويه تاريخ الأمة الإسلامية بإبراز العناصر السلبية فيه، فكان ديدنهم طمس سيرة الخليفة العادل وإبراز السلطان الجائر وإخفاء صورة القائد المجاهد وإظهار صورة الماجن السفاح وحجب ذكر الإمام والعالم والقاضي التقي المستقيم لإشهار النوادر في سير المنافقين ووعاظ السلاطين، وأبعدت عن الأعين صورة المرأة المسلمة المجاهدة لتضخم صورة الجواري والقيان أو المرأة الخاملة: وغيبت الثورات الإسلامية وحركات الجهاد الإسلامي، كما عمدوا إلى تصفية الهوية الإسلامية من خلال العودة بالشعوب الإسلامية إلى تاريخ ما قبل الإسلام لإبراز الهوية الوثيقة واعتبار الإسلام غزوا واحتلالا، وهذا ما ركز عليه في إيران وتركيا أما بالنسبة إلى الغرب فقد ركز بصورة خاصة على الهروب من المرحلة الإسلامية في تاريخهم أو المرور بها مرورا سريعا ليركز على هوية إقليمية تعود في جذورها إلى تلك المراحل السابقة للإسلام: فرعونية ـ فينيقية ـ كنعانية ـ آشورية بابلية. وبهذا تصبح الأمة كتلاً بلا هوية، وتصبح لكل قطر هوية مزيفة لا تنفعه إلا وهو سائر على طريقة التجزئة والتراجع والعقم والعجز.

كما حاربوا الإسلام باستبعاد معاييره عن التداول عند بحث المشاكل أو القضايا الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية، فهو غير معترف به أهلا للخوض في هذه المشاكل والقضايا وكذلك الحال بالنسبة لدور علماء المسلمين ومفكريهم وفلاسفتهم في التاريخ فقد أهمل ذكرهم في الغالب،

وطمست أعمالهم عند بحث تاريخ العلوم أو تاريخ القانون أو تاريخ العلم العسكري.

كما شنوا حملات الإرهاب الفكري ضد من يتمسك بالإسلام ويرفض التغريب والتبعية، هذا إذا لم يتعرض للتعذيب والنكال حين يكون مجاهدا بالقول والعمل ولعل من أبسط مظاهر ذلك تلك الإجراءات التي اتخذت ضد الحجاب واللحية في تركيا مثلا.

كما قاوموا اللغة العربية؛ تارة بإبعاد الفصحى وإحلال العامية واللهجات المحلية الإقليمية مكانها، وتارة بمحاولة استبدال الحروف اللاتيني بالحرف العربي وطورا يجعل اللغات الأجنبية لغات التدريس في الجامعات فضلا عن الحملات التي تنعت اللغة العربية بالعجز عن استيعاب العلوم وتقنيات العصر.

كما حاربوا الإسلام من داخله خصوصا حين كانوا يواجهون بصحوة إسلامية واسعة، فأحيانا شجعوا التجاهات التي تقدمه على صورة مشوهة تبعد أهله عن الجهاد ومواجهة التحديات أو تلك التي تقدمه بلا حدود أو تخوم فنجعله على وفاق مع العلمانية والتغريب، ونظرية فصل الدين عن الدولة، ووصل الأمر أحيانا بتسويغ موالاة أهل الكفر والشرك، أو بقبول بعض الاتجاهات بأن يستخدم الإسلام في محاربة هذا الطرف ضد ذاك من الأطراف المتصارعة في الغرب.

وإلى جانب العنف والاستبداد، والتجزئة والتغريب قام الاستعمار، بتحطيم المقومات الاقتصادية وبناء الاقتصاد التابع، ويقول الأستاذ منير شفيق في كتاب «الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر» عندما اجتاحت جيوس الغزاة الغربيين هذه البلاد، كان هنالك نظام اقتصادي كامل تجد عبر عشرات السنين له أصوله وتقاليده وقوانينه وله أنظمته بالنسبة إلى الملكية والإرث والبيع والشراء والتنمية والاستثمار وغير ذلك، وكانت بعض سماته اعتمادا على النفس واكتفاء ذاتيا وتعاونا جماعيا واستعدادًا للتنمية وتحقيق الازدهار، فجاء الغرب ليحطم كل البني

الاقتصادية القائمة، لا لأنها متخلفة ـ كما روج بعض الموتورين ومعهم بعض السذج ـ وإنما لتحطيم أسس اعتماد البلاد على ذاتها اقتصاديا ووضعها على طريق التبعية؛ فالملكيات العامة التي كانت تملكها القرى والجماعات والمشاعات عمل على إعادة تسجيلها لتحول إلى ملكيات إقطاعية والصناعات التي كانت تعتمد على السوق المحلية ويحطم الزراعة فشدد النكير على اللباس التقليدي وشن الهجوم على الزراعة المتوارثة القائمة على تلبية حاجة البلاد والسوق المحلية ليجعلها زراعة أحادية الجانب لتخدم صناعات وحاجات سوقه العالمية وعلى سبيل المثال القطن في مصر والعنب في الجزائر) وراحت اتجاهات التغريب تحتقر كل ما هو اقتصادي تقليدي وإنتاج محلي، وتصفه بالتخلف والتأخر وبيح تحطيمه تحت شعار أن الاقتصاد يجب أن يحدث ويعصَّر لتقوم الصناعة المتطورة وتحل الآلات والماكينات محل المحراث وأيدي الحرفيين، وصفق لهذا الاتجاه أصحاب النظريات المعتمدة على الماركسية تحت حجة أن ذلك يخلص البلاد من العقلية الفلاحية العشائرية المتخلفة في الريف والحرفية والإنتاج الصغير في المدن لتبدأ رحلة إدخال أدوات الإنتاج المتطورة وعلاقات الإنتاج الرأسمالية الحديثة فتنشأ في البلاد طبقة بروليتارية مما يسمح لاحقا بالثورة الاشتراكية بعد إنجاز الثورة الوطنية البرجوازية.

وهكذا تضافرت كل مدارس الغرب لتحطيم الاقتصاد التقليدي ووصفوه ـ باحتقار ـ بأنه اقتصاد الكفاف أو اقتصاد التخلف والانحطاط، وشجعوا كل ما هو مستورد غربي وأسهموا في تحطيم صناعة النسيج التقليدية بدلا من أن تظل لها سوقها الواسعة وذلك من خلال شنهم الحملات ضد اللباس الشعبي التقليدي مما ساعد على تحطيم فروع من الزراعة وتربية الحيوانات التي كانت تمد تلك الصناعات بحاجاتها وتعتمد عليها، وتحطمت الحرف وبعضها اندثر تقريبا وتم التخلي عن مواد البناء المحلية وضرب طراز البناء التقليدي وأصبح البناء على الطراز الغربي يحتاج إلى استيراد أكثر مواده وآلاته الضرورية من الخارج، وأدى

تشجيع التغيير في نمط الحياة إلى الاعتماد تدريجيا على كل ما هو مستورد من الخارج. وكل ذلك يدخل البلاد في خطة الاستعمار المباشر الذي أغرق الأسواق ببضائعه لتصبح له سوقا ينهبها « كالمنشار الطالع والنازل » كما يقول المثل وذلك عندما يستورد منها خاماتها ومنتجات الزراعة أحادية الجانب بأبخس الأثمان وعندما يعود عليها ببضائعه المصنوع ليبيعها بأعلى الأثمان.

أما ما هو أخطر من ذلك كله فقد قام الاقتصاد التحديثي على أسس التجزئة التي فرضها الاستعمار، فبدأت العلاقات الاقتصادية لكل جزء تضعف تدريجيا مع الأجزاء الأخرى لتنمو وتقوي مع البلد الاستعماري الذي أصبح يسمى البلد الأم، وبهذا اقترن التحديث بسمة التجزئة ليدخل الطريق المسدود ويزيد وضع الأمة وهنا على وهن[1].

إن وصف بعض السمات الاقتصادية للاستعمار ـ مثل الاحتكارات والشركات المتعددة الجنسيات وتصدير رؤوس الأموال واستيراد المواد الخام وإعادة اقتسام العالم فيما بين الدول الاستعمارية ـ لا جدوى حقيقية منه ما لم نفهم ونقدر خطورة السمة الأساسية وهي تحطيم المقومات الاقتصادية المستقلة وبناء مقومات الاقتصاد التابع بكل ما يعنيه ذلك من تحطيم لأنماط الحياة الإسلامية والحضارة الإسلامية والأسس التي أقامها المشروع الإسلامي في تنظيم العلاقات الاقتصادية، وإحلال التغريب الحضاري وأنماط الحياة المتغربة والقوانين الوضعية الرأسمالية مكانها ومن ثم رؤية ذلك باعتباره عملية سلبية تماما وخطوة كبرى إلى الخلف والتخلف، وسوف نلحظ أن الإخفاق في فهم جوهر المعركة مع الاستعمار في المجال الاقتصادي وعدم ربطها بالحرب الحضارية الشاملة ككل التي شنها ضد الأمة قد أدى إلى إخفاق المحاولات التي هدفت إلى وقف النهب الاستعماري أو ضرب الاحتكارات، أو بكلمة أخرى أن إنجاز تلك المهمة

(١) اللورد اللنبي.

المزدوجة لم ينقل البلاد إلى الاستقلال الاقتصادي والتصنيع والازدهار ولم يرس حتى أسسا لذلك، بل كان إرساء لأسس التبعية والإلحاق وتحديدًا لاتجاهات المستقبل ضمن هذا الإطار، وكان ثمرة طبيعية للموقف النظري الخاطئ. الذي بارك عملية تحطيم بني الاقتصاد التقليدي بلا تفكر ولا تدبر، ومضى يدفع بطريق زرع بني اقتصادية من النمط الغربي مكانه، ولهذا فإن الفهم المتغرب لسمات الاستعمار والإمبريالية، أو سمات طبيعة الصراع فهم سطحي غير صحيح، لأنه لم يمس الجوهر ولم يضرب الجذور ولم يوضع ضمن الإطار الشامل للصراع أو بكلمة أخرى كان فهما وهميا غير علمي يبنى على موضوعات مغلوطة فتلك العملية لم تكن ـ كما توحي تلك الموضوعات ـ تؤدي إلى إرساء أسس لتطور لاحق نحو مجتمع رأسمالي من الطراز الذي عرفه الغرب، ولا نحو ثورة برجوازية وطنية، وإنما كان عملية وضع أسس لحالة قد حكمت في تطورها اللاحق بحتمية الإيغال في التبعية والإلحاق، وهذا ما أثبتته الوقائع اللاحقة، فعندما تظهر في تلك الحالة جوانب ذات طابع رأسمالي فمن الخطأ التصور أنها بذور سوف تنطوي لنظام رأسمالي كما حدث في أوروبا، الأمر الذي يفترض أن ترى ضمن إطار التبعية باعتبارها نمطا اقتصاديا خاصا تولد عن الحالة الاستعمارية والتغريب والتجزئة ولا يحمل في داخله إلا اتجاها نحو المزيد من الارتباط بالخارج والاعتماد عليه والتبعية له، أما نقضه فلا يأتي إلا من خارج إطاره، أي من الحالة الشعبية القادرة على بناء نسق اقتصادي ضمن إطار حضاري مختلف جذريا.

***

إن التأمل العميق لتلك السمات منفردة ومجتمعة يفترض أن نعرف كيف نخوض حربنا الشاملة مع النظام العالمي الشرير، فإدراك سمة العنف يفترض أن تعد الأمة عدتها وتتهيأ لمواجهة هذا العنف ولا يتأتى ذلك إلا « بالجهاد »؛ أي تعبئة كل البشر للقتال الشعبي المستمر طويل المدى: الإنسان المجاهد في مواجهة الجيوش الغربية المنظمة. وإدراك سمة التجزئة وتكريس دول التجزئة

ومؤسساتها يفترض أن يتجه المسار اتجاها وحدويا لا اتجاها يحفر في الأخاديد نفسها التي حفرها الاستعمار، وإدراك عملية التغريب وأهدافها ووسائلها يفترض ألا يكون المسار أيضا لا في التغريب والمزيد من هجر الإسلام ـ وكذلك الأمر في فهم سمة تحطيم البنى والمقومات الاقتصادية الأصلية التي قامت في بلادنا وإحلال بنى ومقومات اقتصادية متغربة تقوم على أساس التجزئة وتتجه إلى مزيد من الإلحاق والتبعية مما يفترض وقف الانجراف وراء هذا التيار ـ بل إلى بناء اقتصاد مستقل وغير تابع ومقطوع الصلة تماما بالنظام العالمي الشرير ومعتمد على البنى الذاتية إنتاجا وتسويقا.

***

القطع بفشل التغريب

قامت الحضارة الغربية على العنف والنهب، ومنذ ما يسمى بعصر النهضة ـ وهو الأساس الأول للحضارة الغربية المعاصرة ـ وحتى الآن فإن آلية العنف والقهر لم تتوقف، بل تطورت مع النهب والسلب. ووجدت تطبيقاتها المباشرة وغير المباشرة في التسليح والاستعمار، وأدى التسليح والتكنولوجيا والاستعمار إلى تراكم الثروات في العالم الغربي الذي أدى بدوره إلى ظهور الرأسمالية ـ التي أدت بدورها إلى مزيد من العنف والنهب.

وأدى هذا إلى أن القيم والنظم والأفكار والمعايير والعادات والأخلاق أصبحت بدورها خاضعة لقانون العنف والنهب. بل أن الثروات والتغيرات الاجتماعية والإصلاحية التي شهدتها الحضارة الغربية جاءت لإحداث دفعات جديدة في بنية القهر والعنف والنهب وليس إلى تخليص الحضارة الغربية من ذلك.

وفي رحاب الحضارة الغربية تصاعدت الاتجاهات العنصرية والمظالم الاجتماعية والطبقية وتحكم الاحتكارات واستبداد وتسلط الدولة وارتفاع

مضطرد في نسب الجريمة وإدمان الخمور والمخدرات والانحرافات الاجتماعية والأخلاقية والشذوذ الجنسي، مما يقطع بأن الحضارة الغربية تقود العالم إلى هاوية سخيفة وها هو « جيسكار ديستان » أحد قيادات هذه الحضارة يصرح من هول ما يحس به ويراه « أن العالم تعيس وهو تعيس لأنه لا يعرف مصيره ـ ولو عرف مصيره لاكتشف أنه سائر نحو كارثة ».

إذن العلة في الحضارة الغربية تكمن في الأساسات والجوهر وليس في هذا الفرع أو ذلك من فروع الشجرة ، وبالتالي فالحضارة الغربية ذاتها بحاجة إلى أن تذهب إلى مزبلة التاريخ لأنها حضارة ظالمة قامت على العنف والنهب ومضت في كل يوم لمزيد من هذا الظلم والعنف و'لنهب ولم ترق بعلاقات الإنسان بالإنسان أو الرجل بالمرأة أو الحاكم بالمحكوم أو الغني والفقير أو القوى والضعيف، أو الأسود والأبيض أو الإنسان والبيئة، بل قدمت أحط وأقذر النماذج لهذا كله.

ولا يمكن لحضارة هذه بعض ثمارها أو حضارة قامت في ظل نسق تاريخي خاص وترعرعت في ظل السيطرة على العالم ونهبه أن تكون نموذجا قابلا للاحتواء.

إن عملية نقل هذا النموذج أو بعضه إلى أمة الإسلام لا ينتج عنه إلا المزيد من التبعية والعجز والشلل بل ويؤدي إلى ضياع فرصة حقيقية لخلاص البشرية من خلال صعود حضارة الحق والقوة والحرية حضارة الإسلام.

إنه من خلال الوقائع المتاحة وهي وقائع لا تكذب، فإننا يمكن أن نقرر في حزم أنه لا نهضة في بلادنا بدون الإسلام، ولا خلاص للبشرية إلا بالإسلام.

إن علينا أن ندرك أن السير على طريق التغريب يقود إلى العقم والهزيمة، والانحطاط، وأن على المتغربين من بيننا أن يواجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة، ويضعوا حدا لعبثية الانصياع وراء حضارة الغرب وثقافته وأن يفتحوا عيونهم على الإسلام علهم يجدون السبيل إلى نهضة الأمم وإلى إنقاذ العالم كله من براثن

الهاوية، وإن من لا يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة منهم بعد كل هذه التجارب والمآسي والوقائع وانفضاح الفكر والمتغرب وانكشافاته في سياساته وبرامجه ومشاريع حكمه فهو لا يريد لهذه الحالة تغييرا ولا يريد للأمة أن تتخلص من حالة الانحطاط ولا يريد للعالم أن يكتشف الطريق الصحيح للنجاة[1].

***

هل يمكننا أن نقع في وهم انتهاء الحقبة الاستعمارية بعد أن حصلت معظم الدول على استقلالها وأصبح لهم علم ونشيد وجيش وشرطة؟ ولمعرفة حقيقية مثل هذا الأمر ينبغي لنا أن نعرف ماذا كان يريد الاستعمار من وجود جيوشه في بلدان العالم؟ ألم يكن يريد النهب والتجزئة وزرع أنماط حضارته. وكان يقتل ويسرق ويزرع الفتن ويحارب كل ما هو وطني وأصيل ألم يكن ذلك يتم بطريقة مباشرة كانت تستفز القوى الكامنة في الشعوب لتقاومها، ألم تكن المقاومة واستمرارها كفيلة باستنهاض الأمة واستعادة إيجابيتها وحيويته والتخلص من الصدأ الذي طرأ على نفوس أبنائها ووجدانهم. ألم تكن تلك المقاومة تستفز في الأمة بحثها عن جذورها والتمسك بها ورفض كل ما هو استعماري؟ ألم تكن المقاومة تؤكد روح الوحدة حيث أن العدو واحد والأهداف واحدة.

إذا كان لا بد للاستعمار أن يطور وسائله فبدلا من تكاليف الاحتلال المباشر وما يمثله من استفزاز وما يزرعه من روح للمقاومة ابتكر الاستعمار شكلا جديدا وخبيثا كان الاستعمار المباشر مثلا يفرض التجزئة، وكانت الشعوب في المقابل تحلم بالوحدة وترى التجزئة عملا مفروضا من جيوش الاحتلال. فلماذا لا يرحل الاستعمار ويزرع التجزئة، ولكن على يد السلطات المحلية؟ أي أن تقوم كل دولة بإعلان دستور خاص بها ونشيد وعلم وطني وتخطط الحدود وتصدر جوازات

(١) مجلة الطليعة اللندنية ـ ١٩٨٤.

السفر التي تحدد جنسية المواطنين، أي أن تصبح التجزئة شجرة يسقيها الاستقلال ويرعاها أي أن نوغل بأقدامنا في نفس الوحل الذي أراده لنا الاستعمار ولكن بإرادتنا وهتافاتنا هذه المرة.

وإذا كان الاستعمار المباشر يريد أن تحيا وفقد نموذج سياسي واقتصادي واجتماعي محدد يحقق له أهدافه، فلماذا لا ترحل جيوشه وتقوم بتلك المهمة السلطات المحلية التي تقوم بمهمة بناء جهاز الدولة المستقلة الإداري والسياسي والقانوني وفق نظم الاستعمار وتحت شعارات « العنصرية ».

وإذن فإن الاستعمار يريد أن يقطع الأمة عن جذورها لتصبح قشة في مهب الريح، فلماذا لا تقوم بذلك أحزاب ومؤسسات ومفكرون، مؤسسات ترفع علم الوطن وتحكم وتعارض وفق أيديولوجيات الغرب ونظمه ونسقه الحضاري؟

وإذا كان النهب هو ديدن الاستعمار وهدفه، فبدلا من أن تقوم جيوش الاحتلال بذلك، تقوم به مؤسسات الاقتصاد الدولي من بنك دولي وصندوق نقد دولي وتصدير واستيراد وبناء صناعة وطنية بالمقاييس والأحجام التي تكرس التبعية.

وفي كل الأحوال فإن النهب والتغريب والتجزئة تتحقق جميعها بقليل من الحبكات السياسية الدولية ونظم التجارة الدولية فإذا ما حولت دولة ما أن تتخطى تلك النظم أو تسعى نحو الوحدة والاستقلال وقطع خيوط التبعية أو بناء الاقتصاد غير التابع فإن جيوش الاستعمار جاهزة للعودة فورا في مهمة مجددة تؤديها ثم ترحل ولعل دروس أفغانستان وفيتنام ومشاة الأسطول الأمريكي في لبنان أو الأردن أو غيرها أبلغ دليل على هذا.

إذن فالسمات الاستعمارية هي العنف ـ النهب ـ التغريب ـ التجزئة، ولكن يقوم بتحقيقها مؤسسات محلية في الحكم أو في المعارضة أو في هيئات الاقتصاد

الدولية، وقوانين التجارة والاحتكارات، وكل هذا بدلا من الجيوش التي تستفز بوجودها روح المقاومة في الشعوب.

***

زرع الكيان الصهيوني:

في خرائط الفاتيكان منذ ما قبل القرن السادس عشر، كان الخرائط التي تمثل العالم ترسم على شكل ثلاث دوائر بيضاوية تتصل أعناقها الثلاثة بحلقة هي «القدس» أي أن فلسطين تشكل النقطة المركزية الاستراتيجية التي تمسك بخناق التقاطع الاستراتيجي بين قارات العالم، أي أن الاستيلاء والسيطرة على العالم في أية استراتيجية كونية يتطلب الاستيلاء على المنطقة العربية الإسلامية، وتقع فلسطين في القلب منها، لأن السيطرة على تلك المنطقة هي الأساس الوحيد للسيطرة على العالم بحكم موقعها الاستراتيجي وبحكم كون شعوبها المسلمة تمثل التحدي الحضاري الحقيقي « بالإسلام » لمواجهة الحضارة الغربية.

وكان نابليون في أواخر القرن الثامن عشر يحمل مشروعًا يرمي إلى زرع اليهود في فلسطين وإقامة قاعدة تشكل امتدادا لأوروبا هناك. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر استعدت الحلقات الاستعمارية لإقامة قاعدة بشرية عسكرية معادية معاداة مطلقة للمسلمين في فلسطين، وأعلنت بريطانيا رسميا ـ باعتبارها أقوى الدول الاستعمارية ـ « وعد بلفور » سنة ١٩١٧ والتزامها بإقامة هذه القاعدة تحت اسم « إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ».

أي أن الهدف الاستعماري الذي خطط له الفاتيكان، ونابليون ثم انجلترا؛ أي كل الغرب الاستعماري؛ كان السيطرة على هذه العقدة الخطيرة بقوة الجيش وبقوة سكان مجتمع ودولة ومن ثم يقوم كيان معاد عداء كاملا للمنطقة ويجيء امتدادا حضاريا وبشريا وعضويا لليهودية العالمية وللغرب نفسه في آن واحد.. وكان

الهدف من زرع هذا الكيان بهذه الكيفية هو:

- منع وحدة الأمة الإسلامية التي تشكل الخطر المركزي بشريا وحضاريا وجغرافيا على العرب.

- شل دور المسلمين في المنطقة ومنع أي محاولة لنهوضهم.

- إدامة التجزئة وتكريسها باستخدام العنف « الهراوة الصهيونية » التي سوف تستخدم ضد كل من يحاول أن يفكر في الوحدة أو رفض التغريب أو إقامة اقتصاد مستقل وغير تابع.

- إذن فالصراع على أرض فلسطين هو صراع أمة ضد الحضارة الغربية.. هو صراع كل مسلم وكل مستضعف على وجه الأرض ضد الاستكبار العالمي.

- إنه من البديهي والحالة هذه أن النظام العالمي الحالي لن يسمح بتحرير فلسطين بأي شكل من الأشكال. وبالتالي فإن تحريرها يتطلب مواجهة شاملة ضد قوى الاستكبار والهيمنة في العالم وليس باللعب على تناقضات بعضها مع البعض الآخر.

***